رسالة وجواب
حول تحقيق طرة على مخطوط

يطيب لنا أن نقدم لكم هاتين الرسالتين المتبادلتين بين اديبين مغربيين أحدهما يوجد في رباط المنصور ، والثاني يوجد في بغداد المنصور ، وقصدنا من هذا النشر أن يقف قراؤنا بدورهم على نوع من هذه « المخاطبات » وقد استأذنا في نشرها من يعنيهما الامر فتفضلا مشكورين :

نص الرسالة بعد الحمد والتحلية

وبعد فقد كنت اتمنى بعدما تهلت من الرافدين وعللت ، أن أجد من الوقت ما يمكنني معه أن استأنف ما به بدأت على شط أبي رقراق ، بيد أن البرور بمصلحة الوطن انسانا لذائذنا الخاصة ، وهكذا أمسينا لا نزور الكتب الا الماما وخاصة في هذا الظرف الشائب ، الذي ينوء بفواجعه الحاضر والغائب ، وان الامل قوي في أن يرجع الاخ الى أخيه ، ويذكر الجار وشائج قربـــاه :

اذا احتربت يوما فسالت دماؤهـا ... تذكرت القربى ففاضت دموعهـا

لقد اتخذت سلوة لي كلما انهيت واجباتي أن الوذ بالمكاتب العامـة هنا وهي كثيرة ، وبالمكاتب الخاصة وهي أمكن وأسهل ، لكن ما يغمرنا به هؤلاء « العراقيون » من كرم الضيافة وادب الوفادة ، يشغلنا عما من أجله اجتمعنا ، ويسلمنا الى حدائق أخرى من العلم والادب زاهية ، ويتهادانا الى مواضيع مرضية راضية . هذا الى انني وجدت نفسي مضطرا بعدما أعرقت الى أن أخذ بجانب لسان آخر ذاع هنا وعمر ، « ومن دخل ظفار حمر » كما يقول المثل العربي .

هذا وقد كنت في بعض أحاديثي اليكم ذكرتكم بانني عثرت ـ وأنـا احقق تاريخ ابن صاحب الصلاة ـ على قصيدة لابي عمر بن حربون قالهـا بمدينة مراكش لدى مبايعة ابي يعقوب يوسف الموحدي ، كان في جمـلة أبياتهـا :

يصنع السيف المصمم في الوغـى ... اذا لم تساعده على الضرب ساعد

وكنت ذكرتكم بانني ـ عندما وقفت في اكسفورد على النسخة الاصلية ـ وجدت طرة على يمين الكتاب عن هذا البيت هكذا : « هذا ينظر الى قول المتنبي : « وما السيف الا مستعار » غير انني لم أجد اثرا لذكره في ديوان المتنبي ... وقد كان أحد الاصدقاء ذكر لي أن عجزه : « فذكرك كاف للعدى والاشاوس » بيد ان هذا كان مجرد كلام لم تسنده حجة ، ولم يدعمه برهان ، وقد كنت استنجدت بسعادة الاخ الاستاذ خيرالدين الزركلي صاحب الاعلام ، وبحضرة الصديق الاستاذ العابد الفاسي الذى كان على علم بنسخ مخطوطة من ديوان المتنبي عثر عليها مؤخرا في مكتبة المغفور له جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه ... ولكن احدا لم يقف على شيء ما يؤيد ان الشعر لابي الطيب ، نحن نعلم ان للمتنبي في هذا المعنى أبياتا منها :

وما السيف الا القطع فعل وانت القاطع البسر الوصول

ومنها :

وما يصنع السيف المصمم في الوغى اذا لم تساعده على الضرب ساعد

لكنني لم أقف على الشطر الذى استأنست به الطرة ، بما كان في الحقيقة ! وهكذا بقي المصراع الاول دون لقاء بالمصراع الثاني وكان هذا طبعا مما لا تطرب له المثالث والمثاني !

فانني اذ اهنئكم بالعيد السعيد انتهز هذه الفرصة لاذكركم بالموضوع ، وانني على يقين من انني سأجد في سعة اطلاعكم واستقرار احوالكم ما يشجع على التتبع والاستقصاء ، وقد عودتموني في استقصائكم ما يجعلني اعتمد عليكم .

وفي الختام أذكركم بما طلبت اليكم من معلومات عن حياة والدكم المنعم ومؤلفاته وبحوثه حتى استطيع تقديمه الى رجالات العلم هنا ، فلعلكم على دراية من ان تعريف أهل المشرق بالمغرب وتعريف المغرب بأهل المشرق مما يدخل في دائرة نشاطي ، ومما يزيد في سروري واغتباطي ...

حرر ببغداد يوم الخميس ٣٠ رمضان ١٣٨٣ الموافق ١٣-٢-١٩٦٤

اخوكم

عبدالهادي التازي

نص الجواب بعد الحمد والتحلية

وبعد السؤال عن كافة الاحوال ، فمنذ أعرفتم ونحن نتطلع الى أخباركم وأعمالكم الثقافية ، واطروحتكم الموحدية ، ونتملى بمذاكراتكم التاريخية ورسائلكم الاخوية .

وان المصراع الذى طال البحث عنه ، وكثرت المذاكرة هنا في شأنه ولم يتيسر حينذاك الاهتداء الى شطره لا بواسطة الكتب والدواوين ، ولا من طريق الرواة والوعاة ، لم يزل عالقا بذهني ، يتردد على لساني ، ويتلجلج في خاطري ، حتى كدت أتممه من قولي ، وأجيزه من نظمي ، الى أن يسر الله سبحانه أخيرا فوقفني لتصفح الجزء التاسع من كناشة الوزير اليحمدي ،

فلما بلغت أواخر الجزء ظفرت بالبيت تاما بعجزه المقصود مفردا عما قبله وبعده ، غير منسوب لاحد ، مسبوقا ببيتين آخرين في معناه مسوقا هكذا :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا اذا لم يكن فوق الكرام كرام !

وقال آخر :

فهذه سيوفٌ ياعدي بن مالك كثير ، ولكن أين بالسيف ضارب

من معناه :

وما السيف الا مستعار لزينة اذا لم يكن أمضى من السيف حامله

فالتأم بذلك المصراعان الاخوان وتدانيا بعد طول التنائي ، وأخذ لسان حالهما يعارض بحتري الغرب ــ أبا الوليد أحمد بن زيدون ــ وينشد :

أضحى (التداني) بديلا من (تنائينا)

وصادف ذلك الاعلان عن تباشير التقارب بين الاخوة والمتنازعين ، والاتفاق على تراجع الحشود ، عن مواقف الحدود ، وتبادل التهاني ، بحصول التداني ، ونجاح الاماني ، فتذكرت حالة ابي عمرو بن العلاء البصري أحد القراء السبعة وهو هائم بصحراء اليمن عندما سمع أعرابيا ينشد :

ربما تجزع النفس من الامـ ـر لـه فرجة كحل العقال

وكيف كان سرور أبي عمرو بظفره بضالته المنشودة ، وبغيته المقصودة ، اذ وجد في فتح الفاء حجة له على قراءته (الا من اغترف غرفة بيده) والقصة في سرح العيون لابن نباتة (١٨٧:١) وحرف العين من وفيات ابن خلكان، وشرح الشريشي في المقامة الاربعين (١٨٨:٢)،(٢٥٥:٢) وحاشية الخضري على بن عقيل في باب الموصول (٩٥:١)،(٩٠:١) بروايات مختلفة ، وبالفتح قرأ الحجازيان الحرميان : نافع المدني وعبدالله بن كثير المكي ، كأبي عمرو البصري ، وبالضم قرأ الباقون ومنهم عبدالله بن عامر الشامي والكوفيون وبه يضبط الشرقيون الان ، ففيها لغتان ، والقراءتان سبعيتان ، والبيت لامية بن أبي الصلت الثقفي الذى آمن شعره وكفر قلبه !

وفي تلك الاثناء تلقيت رسالتكم العيدية ــ المحررة في أواخر رمضان ، الواصلة في أواسط شوال ــ فترادفت بذلك مطالع المسرات ، وتوالت دلائل الخيرات ، وكان الامر عن غرائب الاتفاق .

وبعد التمكن من عجز البيت وقافيته بقيت النفس متشوقة بمعرفة قائله ، والقصيدة التي هو منها ، فأعملت البحث عنهما ، وبعد استعراض بعض المجموعات الادبية والتاريخية ، عثرت على عدة قصائد وقطع من الوزن الطويل على روي اللام المطلق المضموم الموصول بالهاء الساكنة ، منها شعر ضابيء البرجمي ــ أو ابنه عمير ــ المتداول منه البيت الشاهد على حذف خبر كاد :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

ووجدت عبدالقادر البغدادي يقول في خزانة الادب (٤ : ٨٠ من طبعة سنة ١٢٩٩) : « والبيت من أبيات سبعة » . وذكرها نقلا عن مختار اشعار القبائل لابي تمام ، وعثرت في معاهد التنصيص للعباسي (١ : ٦٦) على زيادة ثلاثة أبيات لم يذكرها البغدادي ، هي :

ولا تقربن امر الصريمة بامرىء   اذا رام أمرا عوقته عواذله

فلا الفتك ما أمرت فيه ولا الذي   تحدث من لاقيت انك قاتله

وما الفتك الا لامرىء ذي حفيظة   اذا هم لم ترعد عليه مفاصله

وبينها وبين بيت السيف المفرد المقصود تناسب وارتباط في المعنى، وقد اجتمع لدي من قصة ضابىء وعمير ومقابلة نصوصها وشرحها والتعليق عليها وذكر نظائريها وما قيل على هذا الروي ما يخرج في رسالة مستقلة ان شاء الله تعالى :

وتابعت الفحص عن البيت المفرد ، ولم أجده في ديوان المتنبي ، وواليت البحث عنه في غيره الى أن عثرت على المطلوب – بتغيير يسير – في ديوان الوليد البحتري (٢٠٦–٢٨٣) هكذا مكتفيا بين سابقه ولاحقه :

رمى كلب الاعداء عن حسد نجده
بها قطعت تحت العجاج مناصله

وما السيف الا بزغساد لزينة
اذا لم يكن أمضى من السيف حامله

يداني بمعروف هو الغيث في الثرى
توالى نداه واستنارت خمائله

وهو البيت الثامن عشر من قصيدة له ثلاثينية في مدح الفتح بن خاقان بن أحمد – وزير الخليفة المتوكل بن المعتصم العباسي (٢٠٧–٢٣٢–٢٤٧) – ووصف دخوله وسلامه عليه وأولها :

هب الدار ردت رجع ما انت قائله
وأبدى الجواب الربع عما تسائله

أفي ذاك برء من جوى الهب الحشا
توقده واستغزر الدمع جائله

وهي غير العشرينية التي له في ابراهيم بن المدبر ، وأولها :

سقى ربعها سح السحاب وهاطله   وان لم يخبر انفا من يسائله

وقد ورد البيت المقصود هكذا بلفظ (الا بزغاد) في طبعتي الديوان المصرية والبيروتية المؤرختين معا بسنتي ١٣٢٩–١٩١١ ، فالمصرية بمطبعة هندية مقابلة على نسختين خطيتين بتصحيح ووقوف عبدالرحمن البرقوقي (١ : ١٦٣) ، والبيروتية بطبعة وتعليق رشيد عطية (١ : ٥١) ، وقد فسر فيها البز بالسلاح – وهو كذلك في كتب اللغة كاللسان والمصباح

والقاموس ، وقال شارحه في التاج (٨:٤) : ويقال البز : السيف نفسه ، واستدل له بما أنشده ابن دريد لمتمم ابن نويرة ـ أما طبعة الاستانة للديوان بمطبعة الجوائب فلم يتيسر لي الآن الوقوف عليها ، وأظنها مثل الطبعتين المذكورتين اذ بهذا اللفظ ورد البيت في الكتب الاخرى التي وقفت على ذكره فيها كوساطة الجرجاني وشروح الواحدي والعكبري ، والبرقوقي لديوان المتنبي .

وتحريف (بزغاد) وتصحيفها الى (مستعار) ثم الى (مستدار) غير مستبعد ، خصوصا مع تقارب صورة الدال والراء في الخط ، وامكان اهمال المعجم ، وسهولة تحول رسم العين والغين الى صورة دال ، والباء الى ميم .

وقد بين القاضي ابو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني (٢٩٠-٣٦٦) في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه الشاعر السابق لمعنى البيت ، وذكر من كرر المعنى من الشعراء الثلاثة فقال عند كلامه على ما قيل في سرقات المتنبي (٢٨٦ من طبعة ١٣٦٠) :

ابو تمام :

وقد يكهم السيف المسمى منية ... وقد يرجع النجد المظفر خائبا
فآفة ذا الا يصادف مضربا ... وآفة ذا لا يصادف ضاربا

البحتري :

رمى كلب الاعداء عن حد نجدة ... بها قطعت تحت العجاج مناصله
وما السيف الا بزغاد لزينة ... اذا لم يكن أمضى من السيف حامله

ابو الطيب :

ان السيوف مع الذين قلوبهم ... كقلوبهن اذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده ... مثل الجبان بكف كل جبان

ثم نقله غيره :

اذا ضربت بالسيف في الحرب كفه ... تبينت ان السيف بالكف يضرب

ومثل هذا قول البحتري :

فلا تغلين بالسيف كل غلائه ... ليمضي فان الكف لا السيف يقطع

وقد اعاد المتنبي فقال :

اذا الهند سوت بين سيفي كريهة ... فسيفك في كف تزيل التساويا

ثم نقله الى الخيل فقال :

فما تنفع الخيل الكرام ولا القنا ... اذا لم يكن فوق الكرام كرام

وبعد الجرجاني اشار لسبق البحترى لهذا المعنى واخذ المتنبي عنه شراح ديوانه ، فقال ابو الحسن علي أبن أحمد الواحدى المفسر المتوفي سنة (٤٦٨) في شرحه للبيتين المذكورين ـ وهما الرابع والخامس والخمسون من نونية المتنبي « الرأي قبل شجاعة الشجعان » ـ (٥٩٩ من طبعة برلين ١٢٧٦) : « وهذا من قول البحتري » :

وما السيف الا بزغاد لزينة ... اذا لم يكن أمضى من السيف حامله

وتبعه ابو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري البغدادي الحنبلي الضرير (٥٣٨ـ٦١٦) فقال في شرحه عند البيت ٥٤ المذكور (٤: ١٨٤ طبعة تراث العرب ١٣٧٦) : وهو من قول البحتري :

وما السيف الا بزغاد لزينـة　　　اذا لم يكن أمضى من السيف حامله

وتبعها عبدالرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان في شرحه للديوان هناك (٤ : ٤٠١ من الطبعة الثانية ١٣٥٧) فجاء اخر الحلبة سكينا واتى بلفظ الواحدي ، الا ان الثلاثة لم ينتبهوا الى سبق أبي تمام للمعنى واقتصروا على ذكر سبق البحتري فيه لابي الطيب ، والبحتري معروف بالاخذ من معاني أبي تمام الذي كان شجعه على القول لما التقيا ورأى فيه ملامح النبوغ وامارات الاجادة كما ان ابن رشيق القيرواني في العمدة والضياء نصر بن الاثير الموصلي في المثل السائر ، والامام يحيى بن حمزة اليمني في الطراز ، والمفتي العباسي المصري في المعاهد ، لم يذكروا هذا البيت عند الكلام على السرقات الشعرية .

واقتصر ابو القاسم الحسن بن بشر الامدي (٣٧٠) في كتابه الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري على نقد مطلع قصيدة البحتري هذه (٢٨٦ طبعة الجوائب بالاستانة ١٢٨٧ ـ ١ : ٤٣٢ طبعة مصر ١٣٨٠) . وكذلك فعل ابو العلاء المعري (٣٦٣ ـ ٤٤٩) في كتابه عبث الوليد (١٦٤ طبعة دمشق ١٣٥٥) ولم يتعرضا لهذا البيت منها .

وفي المعنى قال الوزير ابو بكر محمد عمار في المعتضد ابن عباد :

السيف أفصح من زياد خطبـة　　　في الحرب ان كـانت يمينك منبرا

وقال الطغرائي في لاميته :

وعادة النصل ان يزهى بجوهـره　　　وليس يعمل الا في يدى بطـل

قال الصفدي في شرحه الغيث المسجم (٢ : ١١٤) : « وقول الطغرائي يشبه قول ابن خفاجة » :

وما السيف لولا الحرب الا حديدة　　　وما الرمح الا خوطـة تتـأود

وقوله ايضا :

والحسر مفتقـر الى عز الغنـى　　　فقر الحسـام الى يمين الفـارس

وقوله ايضا :

فما احتمى جانب لم يحمه مـلك　　　ولا مضى صـارم لـم يمضـه بطل

وقال ابو الطيب :

فتى يملاء الافعال رأيـا وحكمـة　　　ونادرة احيـان يرضى ويغضـب
اذا ضربت بالحرب في السيف كفه　　　تبينت ان السيف بالكف يضـرب

واخذه ابن سناء الملك غصبا ، وجرد عليه في الاغارة عضبا ، فقال :

فلا تحسبوا بالكف جرد نصـله　　　ولكنـه قد جرد الكـف بالنصـل

ولم يشر على اطلاعه ، الى أخذ المتنبي عن البحتري وأبي تمام ، ولا الى بقية ما قاله المتنبي في المعنى وما قاله غيره من أهل القرون الثلاثة الموالية ٠ وكذلك يتفاوت الاعلام في الاطلاع ويوجد عند احدهم ما ليس عند الاخر ، ويأخذ الشعراء بعضهم عن بعض أو يتواردون على المعنى الواحد ويصوغونه في قوالب مختلفة وصور متشابهة ، الى أن يصبح متداولا ، ويصير مشتركا : « اولئك كالمشموم كل له شذا » ٠٠٠

وفي السيف الكليل بيد الجبان يضرب المثل بسيف الفرزدق الكهام لما أمره سليمان بن عبدالملك الاموي بضرب اعناق اسارى من الروم فنبا السيف بيده ، وقد ذكر ذلك محمد بن سلام الجمحي في أواسط الطبعة الاولى من الاسلاميين من كتابه طبقات الشعراء (١٤١ طبعة السعادة وابن قتيبة في ترجمة الفرزدق من الشعر والشعراء (١٣ ط ١٣٣٢) ، كما ذكر القاضي الماوردي في أوائل الباب الاول من أدب الدنيا والدين ، وأورد قول الفرزدق وجرير في ذلك ، وقول ابي الهول الشاعر لما تهرب شبيب بن شيبة من مثل ذلك لما أمره به المهدي العباسي، وتبع الماوردي في ذكر ذلك العباسي في المعاهد (٢ : ١٤٧) ، وكذلك ذكر بعضه ابن رشيق في العمدة في باب البديهة والارتجال ، والصفدي في الغيث (٢ : ١١٣) وفي المعنى قال أبو اسحق ابراهيم مسعود الالبيرى الزاهد :

يا قوس حراط يشير ولا يرمـي ويا سيف رعديد يرض ولا يدمـي

ويقابل هذا المعنى في نبو السيف وكلاله قول النمر بن تولب العكلبي ــ الشاعر الجواد المعمر الصحابي المخضرم ــ في المضاء والتوغل في الاصابة : يصف سيفه بأنه يغيب في الارض بعد أن يقطع الذراعين والساقين والعنق :

ابقى الحوادث والايام من نمـــر اثـار سيف قــديم اثره بادي
تظل تحفر عنه ان ضربت بـــــه بعـد الذراعين والساقين والهـادي

وهذا من باب المبالغة والغلو الى درجة يمتنع وقوعها حتى سار البيت مثلا في الافراط وقيل انه اكذب بيت قالته العرب ٠

وقد ذكر البيتين ــ والاخير منهما ــ جماعة من ائمة الادب كابن قتيبة في ترجمة النمر من الشعر والشعراء (٦٢) ، والقاضي ابي بكر الباقلاني في اعجاز القرآن في فصل ذكر البديع والكلام (٤٠ طبعة ١٣١٥) وابن رشيق في العمدة في فصلي التتبيع والغلو (١:٢٨٦) ، (٢:٨٥) ، والطرطوشي في البـاب السنتين من سراج الملوك (١٧٣) ، والامـام يحيى اليمني في الطراز (٣ : ١٣٠) ، والصلاح الصفدى في الغيث (٢ : ١١٤) والبطاورى في اواخر الاول من الامتطاق عند قول ابن الوتان :

سـيف كصمصامة عمـرو بـاتر لا يتقـــي بيـــلب ودرق

الا ان هذين القاضيين الاديبين لم يذكرا اسم قائـــل هـــذا البيت الدالي القافية المبالغ فيه ، كما أن الخضري لم يذكر في حاشيته اسم الرجل الهائم في طلب الحجة على فتح الغرفة ، ــ المشار هنـــا في الاول الى اسمه

وشهرته ـ .

وقد يكون المضاء في ميدان اخر كالذي قال فيـه الوزير عبدالملك بن شهير فيما كتبه الى الحاجب المنصور محمد عبدالله بن ابى عامر في قصـة ذكرها المقري في نهج الطيب (١ : ١٨٧) :

وقضى الشيخ فاقضـى الحسـام ذى قضاء عضب القضـبا بتـسار

هذا وقد كنت نقلت لكم ـ عنـد المذاكـرة في مسألة السيف المستعار لزينة ـ البيتين اللذين ذكرهما الشيخ التاودي بن سودة في اواخر شـرح الزقاقية ، وهما :

وما الحلى الا زينـة من نقيصـة يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فامـا اذا كان الجمـال موفـرا ـ كحسنك ـ لم يحتج الى ان يزورا

وقد وقفت اخير في ادب الدنيا والدين (١٦٣) على انهما لابن الرومي ووجدت الصفدي في الغيث (١ : ٨١) اقتصر على ذكر شطرهما الاول غير معزو هكذا : « وما الحلى الا حيلة من نقيصة » .

واني اعتذر لكم عن تأخري في الجواب عن تلك الرسالة ، وعن هـذا الاسلوب الممل وهذه الاطالة ، والحديث ـ كما علمتم ـ شجون ، ومنهومان لا يشبعان ، ولله في خلقه شئون .

ولا أكتمكم استبشاري بما اخبرتم به من قرب بروز كتابكم القيم ، اتم الله طبعه على أحسن حال ، وأكمل مثال ، وأبرع منوال .

ويصلكم صحبته ما تيسر الان مما طلبتموه من ترجمة الوالد رحمه الله وذلك في عدد مجلة دعوة الحق (٣٠ : ١٠ : ٧٦) مـؤرخ بصـفر ١٣٨٠ ، وعددين من جريدة الشعب ٥١٦ـ٥١٨ مؤرختين ١٦ ذي القعـدة و١١ ذي الحجة ١٣٧٩ ، وصورة مما كانت نشرته قديما صحيفة الفتح الاسلامية ـ التي كان يصدرها بالقاهرة السيد محب‌الدين الخطيب صاحب مجلة الزهراء ، ومجموعة الحديقة ـ وهي مأخوذة من الصحيفة ٥ من عددها ١٤٠ المؤرخ ١٥ شوال ١٣٤٧ ـ ٢٠ـ٣ـ١٩٢٩ (السنة الثالثة صحيفة ٦٦٩) وفي ذلـك بعض ترجمة الفقيد وآراء بعض اعلام القرويين ومكناس فيه ، وستصلكم ان شاء الله بعد هذا تتمات للمطلوب .

اخوكم
عبدالكريم ابن الحسني

« عجبت لمن يغسل وجهه مرات في النهار ولا يغسل قلبه مرة في السنة » .
ميخائيل نعيمة